جامعة القصيم
Qassim University
كلية العلوم والآداب بعنيزة
College of Science and Arts in Unaizah

كرسي الشيخ ابن عثيمين
للدراسات الشرعية

السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

آثاره العلمية والدعوية

الجزء الأول

الأربعاء والخميس
٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤١

(5)
الاتجاه المقاصدي في تفسير الشيخ ابن السعدي
د. فاتح حسني محمود عبد الكريم

الرعاة

مصرف الإنماء
alinma bank

سبكيم
Sipchem
EXCELLENCE everywhere

القاضي

الاتجاه المقاصدي

في تفسير الشيخ ابن السعدي

د/ فاتح حسني محمود عبد الكريم

الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن

قسم الدراسات الإسلامية

بكلية التربية بالزلفي بجامعة المجمعة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على إمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فإنّ فهم القرآن غايةٌ عظيمة ومطلب نبيل؛ وأحسن الفهم غايةٌ أعظم ومطلب أنبل وأكمل وأسلم؛ فأحسن الفهم مدعاة لأحسن العمل، وأحسن العمل مقصد الابتلاء في هذه الدنيا؛ ومن هنا فإنّ من جملة ما يسدد الفهم ويجوِّده معرفة مقصد الكلام بحسب مراد قائله وبشروط واضعه؛ فإنّ معرفة مقصد المتكلم من كلامه هو هداية وبصيرة، تُنير الطريق وتُجنِّب الزلل.

وقد اهتم كثير من العلماء بالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في تفسيره[1] « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» وما لفت الانتباه لتفسير الشيخ مقاصدياً أنه جاء في عصر وحقبة زمان بدأ ينضج هذا العلم ويثمر، وهو القرن العشرين للميلاد، الذي ظهرت فيه مدرسة المنار في مصر، ومدرسة التحرير والتنوير في تونس، وكان تأليف تفسير ابن سعدي معاصراً لهاتين المدرستين؛ فكان للشيخ -رحمه الله- لبنةٌ في هذا الفن واتجاهٌ مع هاتين المدرستين، فازدان تفسير الشيخ بإشارات مقاصدية كثيرة، أجاد فيها -رحمه الله- وأفاد في فهم القرآن، ووظفها في توجيه خطابه وأحكامه وحكمه، فعزمتُ- مستعيناً بالله- على الكتابة لإبراز جهد الشيخ -رحمه الله- في هذا الفن من تفسيره.

أولاً: أهمية الدراسة: تصدر أهمية هذه الدراسة في إبراز جهود عَلَمٍ كبير وإمام

(١) اهتم الشيخ بالمقاصد في كل دراساته وكتبه، والباحث هنا التزم بحدود بحثه وهي دراسة المقاصد في تفسير الشيخ فقط.

مـن أئمة المسـلمين عامة والجزيـرة العربية خاصـة في الوقوف على فـنّ من فنون التفسـير وهو المقاصـد القرآنية، وكيف تزامـن نضوج هذا العلم مـع نضوجه عند علماء التفسير في المشرق والمغرب.

ثانيـًا مشكلة البحث: يقوم البحث على التساؤلات الآتية: كيف كانت اهتمامات الشـيخ ابن سعدي المقاصدية في تفسيره؟ وهل استطاع -رحمه الله- الاستفادة من المقاصد وتوظيفها؟ وما هي أبعاد هذه الاستفادة في فهم القرآن وترجيح الأفهام؟

ثالثـًا: أهداف البحث: يهدف البحث لإبراز جهود الشـيخ في خدمة المقاصد القرآنية في تفسيره، واستجلاء أنواع المقاصد، وكيفيات توظيفها في تفسيره.

رابعـًا: دراسات سابقة: لم أقف على دراسة خاصة عن ابن سعدي في موضوع المقاصد القرآنية بالذات، لكن وقفت على دراسـة منهجه في التفسـير بشـكل عام، ودراسة أخرى في منهجه في الاستنباط في القرآن بشكل عام أيضـًا:

١- اسـتنباطات الشـيخ عبـد الرحمن السـعدي من القـران الكريم/ د. سـيف بن منصر الحارثي/ ٢٠١٦/ دار قناديل العلم - السـعودية، وهو في الأصل رسالة دكتـوراة في كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سـعود، عام ١٤٣١ه، استخرج استنباطات الشيخ ابن سعدي في القرآن وهداياته ولم يتطرق لموضوع المقاصد.

٢- منهج الشـيخ عبدالرحمن السعدي في تفسـيره (تيسير الكريم الرحمن...) الطالـب ناصـر المرنـخ، وهو رسـالة ماجسـتير في كلية أصـول الديـن في الجامعة الإسـلامية في غزة، عام ١٤٢٣ه، فأظهر الباحث منهج الشـيخ ولم يلتفت لموضوع المقاصد.

خامسـًا: حـدود البحث: التـزم الباحث في دراسـته على كتاب تيسـير الكريم

الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي فقط، وبيان اتجاه الشيخ في الكتاب مقاصدياً.

سادساً: منهج البحث: اعتمد البحث المنهج الاستقرائي لتفسير الشيخ -رحمه الله- والمنهج الوصفي.

سابعاً: خطة البحث: جاء البحث في مقدمة وتمهيد- بينت فيه عناية المفسرين سلفاً وخلفاً بالمقاصد وأهميتها- وثلاثة مباحث، وخاتمة، تحت كل مبحث ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: عناية ابن السعدي بالمقاصد القرآنية:

المطلب الأول: تنصيصه على الغاية المقاصدية من تفسيره.

المطلب الثاني: التفريق بين المعنى والمقصد.

المطلب الثالث: القابلية للاستفادة المقاصدية.

المبحث الثاني: أنواع المقاصد القرآنية في تفسير ابن السعدي:

المطلب الأول: المقاصد الظاهرة والمقاصد المستنبطة.

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

المطلب الثالث: المقاصد الخاصة الموضوعية والجزئية.

المبحث الثالث: توظيف المقاصد في تفسير ابن السعدي:

المطلب الأول: الاستدلال بالمقاصد للتربية والتوجيه.

المطلب الثاني: الاستدلال بالمقاصد على مواجهة المخالفين.

المطلب الثالث: الترجيح بالمقاصد واستخراج الحكم والأحكام.

ثم الخاتمة: تضمنت النتائج والتوصيات.

تمهيد

أولاً: معنى المقصد لغة واصطلاحاً: يرجع أصل هذه الكلمة للجذر الثلاثي (قصد): وهو في اللغة يحمل أصولاً ثلاثة- كما قال إمام اللغة وبيانها أبو الحسين ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): « القاف والصاد والدال أصولٌ ثلاثة، يدلُّ أحدها على إتيانِ شيءٍ وأمِّه، والآخَر على اكتنازٍ في الشيء. فالأصل: قصَدته قَصْداً ومَقْصَداً. ومن الباب: أقْصَدَه السَّهمُ، إذا أصابه فقُتِل مَكانَه، وكأنّه قيلَ ذلك لأنَّه لم يَجِد عنه.. والأصل الثالث: الناقة القصيد: المكتنِزة الممتلِئة لحماً »[1] فأصول الكلمة الثلاثة تتوجه لموضوع الاغتنام والاكتناز وإصابة محرز الأمر وعدم الحيد عنه، والأصل الثالث يدلّ على أنّ الناقة قصيدٌ أي ممتلئة لحماً وهذا هو المراد، ومنه: هذا بيت القصيد : أي الأمر المهمّ وخلاصة الموضوع؛ فهو أحسن أبيات القصيدة وأنفسها. وقال الراغب:» القَصْدُ : استقامة الطريق... ومنه : الاقْتِصَادُ... وعلى هذا قوله : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.. وقوله : وَسَفَراً قاصِداً»[2] وقال في المعجم الوسيط: « قصد الطَّرِيق قصداً: استقام.. أقصد السهْم: أصَاب.. يُقَال هُوَ على الْقَصْد وعَلى قصد السَّبِيل إِذا كَانَ راشداً»[3].

يتضح مما سبق أنّ معاني القصد إصابة المطلوب وأمّه وعدم الحيد عنه؛ ومنه سمي قصد الطريق؛ لأنه سهل لا عوج فيه ولا إمالة، فأصاب القصد وتوسط في مشيه فلم يحرف ولم ينحرف، والسهم إذا أصاب هدفه فقد أقصد؛ فالمعنى اللغوي يدلّ دلالةً واضحة على السداد والاعتدال.

---

(١) ابن فارس، معجم المقاييس اللغة،٥/ ٩٥.

(٢) الراغب، المفردات في غريب القرآن،٦٧٢.

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط،٢/ ٧٣٨.

ومن المعنى اللغوي يتوجه المعنى الاصطلاحي؛ فالمقصد من الخطاب هو أخذ الخطاب باتجاه مراد المخاطِب وبيان غايته من الكلام؛ فالتفسير المقاصدي هو إصابة غاية المراد في الآية والسورة بقدر الاستطاعة البشرية بحسب الدلالات التعبيرية في الآية.

وما قيدته- بقدر الاستطاعة البشرية- فيه اعتراف بالضعف بالبشري بإزاء كمال القدرة الإلهية، وأدب مع المولى سبحانه وتعالى، وزاد الأدب حرصاً حين أسندته بعبارة الدلالات التعبيرية في القرآن؛ حتى يطمئن القلب باجتهاد صادر عن دلالات وأمارات، وليس عن هوىً وأخراص[1]. « فَغَرَضُ الْمُفَسِّرِ بَيَانُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَوْ مَا يَقْصِدُهُ مِنْ مُرَادِ اللهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِأَتَمِّ بَيَانٍ يَحْتَمِلُهُ الْمَعْنَى وَلَا يَأْبَاهُ اللَّفْظُ»[2] وقد عرفها الحامدي بأنها» الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد»[3] فهي الغاية والمقصد والحكمة، وهي الاعتدال وعدم التطرف والزلل عن مراد الله.

ثانيًا- عناية المفسرين بالمقاصد القرآنية: لا ينبغي لمن يتصدر لتفسير كلام الله إلا الحرص والاجتهاد للتعرف على مقصد كلام الله سبحانه والغاية من مراده وبيانه، لذلك حرص المفسرون بحسب طاقتهم على استخراج المقصد والغاية من القرآن بعمومه، أو من السور وآياتها ومقاطعها على الخصوص،» .. رَائِدُ الْمُفَسِّرِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ عَلَى الْإِجْمَالِ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ مِمَّا جَاءَ لِأَجْلِهِ»[4].

---

(١) جمع خرص وهو الكذب، أصل الخَرْصِ التَّظَنِّي فيما لا تَسْتَيْقِنُه ... ثم قيل للكَذِب خَرْصٌ لما يدخله من الظُّنون الكاذبة . ابن منظور، لسان العرب، خرص،٧،٢١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١ ص ٤٢، المقدمة الرابعة.

(٣) د عبد الكريم الحامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام . ص٢٩.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ص٤٢ المقدمة الرابعة.

وقد تفاوت المفسرون في الوقوف على المقاصد القرآنية؛ فمنهم من اعتنى بالمعنى واللفظ مقتصراً عليها دون النظر لما يقصده الله من هذه الألفاظ والمعاني، ومنهم من ذهب وراء اللفظ والمعنى متدبراً مجتهداً لمعرفة المقصد من هذا الكلام والغاية من مراد الله منه؛ وهو ما أدى إلى التفاوت والاختلاف بين المفسرين، وهذا من طبيعة البشر أولاً، ومن طبيعة دلالات اللغة ثانياً، والأهم من هذا وذاك هو أنّ إرادة الله قد استوجبت كون القرآن ميداناً للفهم والابتلاء والرفعة والاجتهاد؛ فرفع الله عز وجلّ مكانة العلماء المجتهدين لما بذلوه من جُهد وجَهد في التدبر والاستنباط والبحث، وسقط من سقط في فتنةٍ من أمره وشأنه حين اتبع هواه وهُرع للمتشابه ينشد ضالةً لن يدركها.

وقد ظهرت فكرة المقاصد بلفظها قديماً عند علماء الأصول، وبشكل خاص عند علماء المقاصد كأمثال الشاطبي، وبرزت منذ وقت مبكر فرضية مقاصد الشريعة وكتبت فيها كتب ومراجع، ولم يكن هذا اللفظ مصروفاً للقرآن بشكل ظاهر بل كان يُتداول مردوفاً بالشريعة عامة، التي كان القرآن الكريم هو المصدر الأول لها، يقول الشاطبي: « الكتاب العزيز هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وَيَنْبُوعُ الْحِكْمَةِ، وَآيَةُ الرِّسَالَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لَزِمَ ضَرُورَةً لِمَنْ رَامَ الِاطِّلَاعَ عَلَى كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَطَمِعَ فِي إِدْرَاكِ مَقَاصِدِهَا، وَاللِّحَاقِ بِأَهْلِهَا، أَنْ يَتَّخِذَهُ سَمِيرَهُ وَأَنِيسَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ جَلِيسَهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي؛ نَظَرًا وَعَمَلًا»[1] مع الأخذ بعين الاعتبار للعموم والخصوص بين كليات الشريعة وكليات القرآن ومقاصده؛ فكليات الشريعة ومقاصدها جزء من مقاصد القرآن؛ ونقصد بمقاصد الشريعة الأحكام العملية، أما مقاصد القرآن فهي ما يتعلق بالسورة وآياتها وقصص القرآن وأمثاله، ودستوره الأخلاقي، وبُعده العقدي.

(١) الشاطبي، الموافقات، المقدمة ج٤، ص ١٤٤ وانظر (تفسير المنار) ٦، ١٣٤.

ثالثـًا- التفسير المقاصدي عند السلف ومن بعدهم: إنّ الناظر في كتب المتقدمين من المفسرين ليجد اهتمامًا واضحًا بمسألة المقاصد والغايات، ولكنه يجد أيضًا تواضع هذا الفن كمبحث مستقل بارز لدى المفسرين؛ فقد تجد من العلماء المتقدمين من اهتم بمقصد السورة أو الآية ولكن بشكل عابر كجزء لا يتجزأ من التعريف المتداول للتفسير؛ فكان إبراز المقصد أمر يتفرع عن تفسير الآية، بعكس ما جرى في العصر الراهن من إبراز هذا العلم كفنّ مدون خاص، وعلم بارز من علوم القرآن ووسائل تدبره.

ولعلّ إمام المفسرين الطبري- -رحمه الله- - حين استعمل لفظ المعنى كان يقصد به المقصد؛ وما جزمنا بذلك إلا من خلال سياق كلامه- -رحمه الله-- حين قال: «.. أَنَّ اللهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ فِي مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا سَدُّ خَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالآخَرُ مَعُونَةُ الإِسْلاَمِ وَتَقْوِيَتُهُ»[1] فلم يكن من منهجه -رحمه الله- استخدام لفظ المعنى للمقصد إلا في هذا الموضع في حدود دراستي للتفسير، إلا في أضيق التفسيرات ويصرح فيها بالمعنى والمقصد معًا وهو عزيز في تفسيره، قال -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾[النساء: ٣] «وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تُخْرِجُ الْكَلاَمَ بِلَفْظِ الأَمْرِ، وَمَعْنَاهَا فِيهِ النَّهْيِ أَوِ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩] وَكَمَا قَالَ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل: ٥٥] فَخَرَجَ ذَلِكَ مَخْرَجَ الأَمْرِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ، وَالزَّجْرُ وَالنَّهْيِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم ﴾ بِمَعْنَى النَّهْيِ، فَلاَ تَنْكِحُوا إِلاَّ مَا طَابَ

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، ج ١١، ٥٢٣.

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ»[1].

وقد صرح الطبري -رحمه الله- بالمقصود من الآية في مواضع قليلة جداً من تفسيره، قال -رحمه الله- في تعيين اسم المارّ على القرية في سورة البقرة: «وَلاَ بَيَانَ عِنْدَنَا مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصِحُّ مِنْ قِبَلِهِ الْبَيَانُ عَنِ اسْمِ قَائِلِ ذَلِكَ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عُزَيْرًا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ إِرْمِيَا، وَلاَ حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ اسْمِهِ، إِذْ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ بِالآيَةِ تَعْرِيفَ الْخَلْقِ اسْمَ قَائِلِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهَا تَعْرِيفُ الْمُنْكِرِينَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِحْيَائِهِ خَلْقَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، وَإِعَادَتِهِمْ بَعْدَ فَنَائِهِمْ، وَأَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ مِنْ قُرَيْشٍ»[2] وهكذا فقد صرّح الطبري بلفظ المقصد بمعناه الاصطلاحي[3] في العصر الراهن من الآية وأنّ الاسم وتعيينه غير مراد ولا مقصود فلا يلتفت إليه. وذكر البغوي (٥١٦هـ) في مقدمة تفسيره مصرحاً بغاية ومقاصد القرآن، فقال -رحمه الله- عن القرآن: « أمَرَ فيه وزجر، وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليُتذكر، وقص عن أحوال الماضين ليُعتبر، وضرب فيه الأمثال ليُتدبر، ودل على آيات التوحيد ليُتفكر، ولا حصول لهذه المقاصد فيه إلا بدراية تفسيره»[4] وقد استخدم بعض المفسرين لفظ الغرض بدل المقاصد في هذه الأحقاب[5]. وإذا سرنا إلى القرن الثامن نجد الإمام المجاهد الشهيد ابن الجوزي (ت ٧٤١ه) يستحضر لفظ المقاصد بمعناها المعاصر؛ وبتواضع أنشط نسبياً ممن كان قبله وبمواضع أرحب قليلاً، وسأبرز

(١) ج ٦، ص ٣٧٤.

(٢) ٤،٥٨١.

(٣) وليست مجرد دلالة لغوية.

(٤) البغوي، معالم التنزيل ١/ ٣٣، المؤلف : محيي السنة.

(٥) ابن عطية الأندلسي ٥٤٢ هـ، والبيضاوي (٦٨٥ هـ) وابن كثير (٧٠٣ هـ)،وشمس الدين القرطبي(٦٧١ هـ).

باختصار مقصد القرآن في التسرية عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد عدّها ابن جزي مقصداً بنى عليها آيات عديدة، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[الأنعام: ٢٣]وبعد تفسير الآية قال:".. كما جعلنا في مكة أكابرها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية، وإنما ذكر الأكابر، لأن غيرهم تبع لهم والمقصود تسلية النبي صلى الله عليه وسلم "[1].

وبقي هذا الفن تابعاً للتفسير إلى أن ظهرت الإشكالية التفسيرية في العصر الحديث في مدرسة المنار؛ وما أحدثوا من تساؤلات حول تجديد التفسير، فظهر هذا الفن وأخرج شطأه وبرزت اجتهادات لبيان مقاصد القرآن وتحديدها، بل وجعل المنار فصلاً بحياله في تفسيره لبيان المقاصد القرآنية سماه:" مقاصد القرآن في ترقية نوع الإنسان" وفصلها في عشر مقاصد استغرقت قريباً من مئة صفحة.[2]، بدا فيها الكلام يحمل طياً من الدفاع عن القرآن وهديه ومواكبته للواقع بقدرة وصلابة، " إنّ سياق الحديث عن مقاصد القرآن عند الشيخ رشيد رضا يبدو بعيداً عن موضوع التفسير وأغراضه.. كما جاء عند من سبقه، مما يعني أن وظيفة مقاصد القرآن عند رشيد رضا ترتبط بالانتصار لصدقية الرسالة وأحقية الوحي، وهو الأمر الذي أقلق الشيخ في زمنه، ..ومهما كان من أمر هذه الوظيفة وذلك السياق، فإنّ كلام رشيد رضا يعتبر أول تفصيل للقول في مقاصد القرآن...."[3] حتى جاء الإمام التونسي ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) فرعى هذا النبت ورباه وهذبه وأظهره كفنٍّ خاص في علم التفسير، حتى صار الإمام علماً في التفسير والمقاصد، فجعل مقدمة تفسيره الرابعة

(١) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ٢٧٤.

(٢) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ١٧٠،١١.

(٣) د. فريدة زمرد، بين مقاصد التفسير والنقد التفسيري، مجلة الإحياء.

يتحدث فيها عن علم المقاصد، وجعل لكل سورة مقاصدها وأغراضها، وتحدث في تفسيره عن مقاصد القرآن عامة وعن آياته ومقاطعه وقصصه خاصة.

رابعًا- تفسير ابن السعدي: وفي القرن الثالث عشر الهجري، العشرين ميلادي، عصر مدرسة المنار وعصر التجديد، ظهر عالم نجدي بارز في علوم الشريعة عامة وفي علم التفسير خاصة، وهو الشيخ العلامة أبو عبد الله السعدي التميمي المشهور بابن سعدي (ت١٩٥٦م) ولد عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، هو عالم مُجِدٌّ، صاحب سعة وتمهل في العلم، وانسيابٍ في القول، موسوعيٌّ ملازم للدرس والتدريس في كل الفنون « يجلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس.. يعلم الناس حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعود إلى بيته؛ ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي العصر بالناس، ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق،.. يصلي بالناس صلاة المغرب، ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء....ويتكرر ذلك في كل يوم»[1].

وقد أبرز الشيخ ابن سعدي في تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - بشكل واضح- المقاصد بأنواعها المختلفة، ووظّف هذه المقاصد في خدمة التفسير وبيان الغاية من كلام الله، مجتهداً في ذلك بحسب وُسْعِهِ وطاقته:

---

(١) عبد الرحمن العدوي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد٤٤.

المبحث الأول: عناية ابن السعدي بالمقاصد القرآنية:

ظهرت عناية الشيخ -رحمه الله- بمقاصد القرآن جلية في تفسيره؛ واستخدم التقصيد بشكل لافت وبمنهجية واضحة مضطردة، وهو بذلك يكون مواكباً لحركة التجديد في التفسير وتطوير أدواته بانضباط والتزام بقواعد البحث والاجتهاد، يقول- -رحمه الله-- في معرض تفسيره والكلام عن آيات الله «وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها..»[1]. « أي: تعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها»[2].

وقد قعّد الشيخ وأصل لقاعدة جليلة في القرآن: وهي عدم ترك أمر من مقاصد هذا الدين إلا وبيّنه الله ودفع لتقويته بالحجج والبراهين، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأعراف: ٧١] قال -رحمه الله-: «.. فإنها لو كانت صحيحة لأنزل اللّه بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصا الأمور الكبار - إلا وقد بين اللّه فيها من الحجج، ما يدل عليها، ومن السلطان، ما لا تخفى معه»[3]. فكيف ظهرت عناية الشيخ بالمقاصد وما هي معالم اهتماماته بها:

---

(١) تفسير ابن السعدي، ص ٥٠٧.

(٢) ص ٨٨٢.

(٣) ص ٢٩٤.

المطلب الأول: تنصيصه على الغاية المقاصدية من تفسيره: فقد أوضح -رحمه الله- غرضه من تفسيره في مقدمة الكتاب، وبيّن أنّ المقصد الأهم من كتاب الله الذي تدور عليه جميع المقاصد هو الهداية، وأنّ النظر للفظ مفصولاً عما سيق لأجله الكلام خروج عن الصحيح وقصورٌ عن المطلوب والمنشود، فقال -رحمه الله-: «... وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوَّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يُجعَل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم..»[1].

فبيّن -رحمه الله- الغاية من تفسيره؛ وهو بيان المقاصد لا الاقتصار على المعنى واللفظ، وقد انتهى -رحمه الله- من كتابته عام١٣٥٤هـ، وبعد أربع عشرة سنة لخّص الشيخ -رحمه الله- تفسيره[2] ولم ينس ذكر هذا المقصد، بل ونص عليه وأبرزه فقال- يصف القرآن-: « .. فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب، وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدينية والدنيوية والأخروية، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة»[3] وقال: « أشار عليَّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطوَّل؛ يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضع علوم القرآن ومقاصده»[4]، فكرر

(١) تفسير السعدي، ص ٢٩.

(٢) سماه تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

(٣)()تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن ١ / ٣.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

المقصد وتقصيد التفسير أكثر من مرة في مقدمته، وجعل أغراضه من الملخص بيان المقاصد، فقد بيّن -رحمه الله- أنّ الكلام لا يستقيم فهماً ولا يتضح دلالةً إلا إذا فُهم المقصود منه، قال- -رحمه الله-- « ..كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله؟»[1] «.. السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علماً وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨] فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خُبراً بالأمر... حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود»[2].

وقد وفّى -رحمه الله- بما ألزم به نفسه، فخرج التفسير والملخص ليسد ثغرةً من ثغرات التفسير، ويضع لبنته وبصمته فيه.

المطلب الثاني: التفريق بين المعنى والمقصد: يرى الباحث أنّ من مقتضيات التدبر المأمور به البشر للقرآن تقتضي تفريقاً بين المعنى والمقصد في الآية القرآنية؛ ولا يعبأ الباحث بالخلافات الفلسفية الكلامية والأصولية، وكل ما أرمي إليه هو أنّ النص القرآني لا تقتصر دلالاته على الألفاظ الظاهرة، بل هناك أبعاد ودلالات ومقاصد تستنبط بضوابط منهجية وأصول دلالية مضطردة تمنع العبث وتطلق الفهم بشرط الانضباط الدلالي؛ حتى يسلم الفهم وينساب التواصل وتُجتنب الأمراض الدلالية[3]، ويفك الاشتباك بين حدود الدلالة والتداولية[4]، ولذلك

(١) ص ٤٨١. في تفسير قوله تعالى﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨].

(٢) ص ٤٨٢. حين استخرج الدروس المستفادة من قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف.

(٣) كعدم ملاءمة اللفظ للمعنى، أو السجع المتكلف، والدلالة نوعان دلالة لفظية ودلالة غير لفظية سواء كانت وضعية أم عقلية أم طبيعية.

(٤) انظر الدكتور إدريس مقبول، «الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية»

اختلف المفسرون في قدراتهم وتدبراتهم وآفاق أفهامهم.

ومن سار من المفسرين في درب المقاصد وتقصيد التفسير نهج هذا النهج وأبرز الجانب المقاصدي في تفسيره، بغض النظر عن المقصود الدلالي للفظ؛ فقد يفسر الآية ويظهر المقصد بصيغة المقصد، أو يفسرها بالمعنى الظاهر[1] ويعبر بالمقصد بلفظ المعنى[2] كما فعل الإمام الطبري من قبل[3].

ويؤكد ابن سعدي على التفريق بين المعنى اللغوي وبين المقصد؛ وعبر عنه بالمراد، فقال: « وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه؛ فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله... »[4].

ويستخدم الإمام ابن سعدي عبارة المعنى أحياناً للدلالة على المقصد، يقول -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ﴿٦٧﴾ ﴾ إلى الأمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٦٧] إلى ورائهم ليبعدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة

وخاصةً في مبحثه الأول حين درس آلية التأويل عند ابن عاشور، ومقارنته بالمتداولين المعاصرين. ٢٠١١م، عالم الكتب الحديث.

(١) أقصد بالظاهر المعنى الواضح المنكشف، ولم أقصد معناه الأصولي الذي يحتمل التأويل فيرجح الظاهر ويؤول المرجوح.

(٢) المعنى عند الأصوليين هو المقصد، يقول الشاطبي: «واللفظ إنما هو وسيلة إلى تَحْصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود» الموافقات، ٢، ٥٧.

(٣) انظر في فصل التمهيد، ٣: التفسير المقاصدي عند السلف ومن بعدهم.

(٤) في مقدمة تفسيره، ص٣٠.

العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم»[1] وبعد أن ذكر المعنى استطرد في التفسير وأظهر المقصد صراحةً فقال:«.. وفي ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند اللّه عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. **المقصود**: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة»[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [الإسراء: ٦٠] قال: «أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ -التي ذكرت -﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم. **والمعنى**: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً رجع عنه[3] بسبب أنّ ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة. والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب. **فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة**؟ أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله

---

(١) ص ٦٩٨.

(٢) ص ٦٩٨.

(٣) لم يصح في ذلك شيء، انظر دراسة د. سعد بن عبد الله الحميد، أستاذ الدراسات العليا بجامعة الملك سعود، حيث أثبت ضعف الخبر الوارد في ذلك، وبين أنّ المسألة كانت جحوداً من كفار أصلاً لا ردةً عن الدين: موقع طريق الإسلام: https://ar.islamway.net/.

وصرفها عنهم»[1].

المطلب الثالث: القابلية للاستفادة المقاصدية: وهي الاستعداد النفسي والفطري لمعرفة المقاصد الربانية من الآيات القرآنية والآيات الكونية، فيلمح الشيخ -رحمه الله- إلى أنّ القرآن يوجه أبناءه للبعد النفسي للمنكرين والكاذبين؛ فيوجه القرآن أتباعه توجيهات لحسن الخطاب والتعامل مع المنكرين، ومن جملة هذه النصائح والتوجيهات بيان عدم القابلية عند المنكرين لملاحظة المقاصد القرآنية والمقاصد من خلقهم وكل مخلوق حولهم، قال -رحمه الله-: «---- نظر فكر واعتبار ---- - أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام: ٩٩] أي: انظروا إليه، وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإنّ في ذلك عبراً وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده، وكمال اقتداره وعنايته بعباده. ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر وليس كل من تفكر، أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام: ٩٩] فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلاً وفطرة، وشرعاً»[2]. وقال

(١) ص ٤٦١.

(٢) ص ٢٦٧.

-رحمه الله- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[يونس: ٧] فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود"[1].

ويبين الشيخ فقهاً عظيماً ومقصداً دعوياً يحتاجه الدعاة في كل زمان، وهو حسن الخطاب وحسن التأتي وحسن التوقيت وحسن الكلام: ففي تفسير قوله تعالى ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦] يقول -رحمه الله-:" ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية،... وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأنّ المقصود منها ضائع"[2].

وفطن الشيخ للمقاصد العكسية التي يستخدمها الطغاة لصرف الناس عن مقصدهم وغايتهم، ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩] قال -رحمه الله-: « الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان باللّه وطاعته وذكره؛ خلقت لهم الأفئدة

---

(١) ص ٣٥٨.

(٢) ص ٦٣٢.

والأسماع والأبصار لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر اللّه وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود»[1]. وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ذكر -رحمه الله- المقصد من الاحتجاج بالقدر وأنّ مقصودهم المشاغبة على الدين ودفعه عن طريقهم، فقال -رحمه الله-: «ومنها- أي من هذه الشبه-: أنّ احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أنّ الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ»[2].

(١) ص ٣٠٩.

(٢) ص ٢٧٨.

المبحث الثاني: أنواع المقاصد القرآنية في تفسير ابن السعدي

تنوعت الاستنباطات المقاصدية عند الشيخ ابن سعدي- رحمه الله- فمنها الاستنباطات الظاهرة الجلية التي نص عليها القرآن بجلاء ووضوح تام، ومنها المستنبطة التي تحتاج إلى دراية وقدرة فائقة على استخراجها ومعرفة المقصد المعنيّ منها، ومنها المقاصد العامة والكلية للقرآن الكريم، ومنها المقاصد الجزئية للآية والمقطع.

وترجع أهمية المقاصد والوقوف عليها إلى أهمية حسن استقبال مراد الله من كلامه، وفهم مراده أحسن الفهم، كما قال الله عز وجلّ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ [الزمر: ١٨] فمعرفة المراد والمقصد تورث أحسنية الفهم وتخلف أحسنية العمل، وفي المقابل: فإنّ أسوأ الفهم يورث أسوأ العمل وعكس المراد؛ فقد فهم بعض الناس قوله تعالى﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٥] على غير مراد الله؛ فقالوا عن الرجل المقدام المجاهد الذي اقتحم الصفوف في معركة القسطنطينية أنه ألقى بنفسه إلى التهلكة، ففهموا عكس مراد الله فيها، حتى بيّن ذلك أبو أيوب الأنصاري، فأفهمهم أنهم حين تركوا الجهاد وانشغلوا بأولادهم وأموالهم ظنّاً منهم أنهم قد أدّوا واجبهم فانتصر الدين وانتشر الإسلام انتهى واجبهم تجاه الدين فنزلت الآية تفهمهم أنهم بهذا الفكر هلكوا، وأنّ نصرة الدين لا ترتبط بزمن أو إنجاز، بل هي المحيا والممات، فكانت التهلكة هي الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد[1]. وينص الشيخ على أنّ هذه المقاصد قد تخفى عن كثير من الناس إما جهلاً أو

(١) انظر القصة كما رواها أبو داود، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن جريرٍ وقال الترمذي: حسنٌ صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

انصرافاً عنها أو لانعدام آلة الاستبصار والتفكر، يقول -رحمه الله-: « ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود؛ ولهذا قيّد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩] فإنّ المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلاً وفطرةً وشرعاً"[1].

فما هي أنواع المقاصد عند الإمام ابن سعدي -رحمه الله-؟

المطلب الأول: المقاصد الظاهرة والمقاصد المستنبطة: تنبه الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- لإبراز مقاصد القرآن الظاهرة ونصّ عليها وأكّد عليها، واستطاع أيضاً -رحمه الله- استنباط المقاصد المخفية التي تحتاج إلى تدبر واجتهاد وبعد نظر:

أولاً: مقاصد ظاهرة: وهي المقاصد المنصوص عليها في القرآن عن القرآن، أو مقاصد الآية أو المقطع من القصة أو المشهد؛ ففي قوله تعالى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] وبعد تفسيره للآية يقول الشيخ عن المقصد من نزول القرآن: «وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]»[2]، وفي تفسير قوله تعالى﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الروم: ٤٦] يبرز الشيخ مقصداً جلياً ذكرته الآية، وهو مقصد ظاهر لكنه

---

(١) ص ٢٦٧.

(٢) ص ١٨٩.

صعب المنال بعيد الطلب؛ يحتاج شدة وهمة وجُهداً وجَهداً، فقال -رحمه الله-: «﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ من سخر لكم الأسباب وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم؛ أن تقابل بشكر اللّه تعالى؛ ليزيدكم اللّه منها ويبقيها عليكم. وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهذه حال من بدَّل نعمة اللّه كفراً ونعمته محنة؛ وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره»[1]. وفي تفسيره لقوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]قال الشيخ- -رحمه الله--: "هذه الأشياء، التي وصف الله بها رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه] شَاهِدًا [..الثاني، والثالث: كونه] مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [.. الرابع: كونه] دَاعِيًا إِلَى اللهِ [..الخامس: كونه] سِرَاجًا مُنِيرًا[»[2].

ثانيًا: مقاصد مستنبطة: وقد برع الشيخ -رحمه الله- في تدبره وفقه استنباطه؛ فقد كانت هذه الاستنباطات أمارةً جليةً على فقه الشيخ ووعيه المقاصدي للقرآن الكريم وآياته، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحج: ١٣] يقول -رحمه الله-: «﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ أي: هذا المعبود ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإنّ المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم»[3]. وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ

(١) ص ٦٤٣.

(٢) ص ٦٦٧ باختصار شديد.

(٣) ص ٥٣٤.

فَنَهَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[يوسف: ٣٠] يقول الشيخ- بذكاء وخبرة-: «وكان هذا القول منهنّ مكراً؛ ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكراً، فقال: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ»[١].

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للقرآن الكريم: اختلفت وجهات المفسرين في تحديد المقاصد الكلية للقرآن الكريم، واختلفوا في طريقة عرضها والإشارة إليها، فمنهم- وبالأخص المتأخرين المعاصرين- من نصّ عليها وجمعها في مكان واحد من تفسيره وحصرها على شكل نقاط محددة، كابن عاشور ومحمد رشيد رضا، فقد حصرها ابن عاشور بثمانية مقاصد أصلية فقال: « أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور ...»[٢] وحصرها رشيد رضا بعشرة مقاصد فقال: «لِأَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ الْهِدَايَةُ بِأَنْ تَكُونَ تِلَاوَتُهُ عِظَةً وَذِكْرَى وَعِبْرَةً يُنَمَّى بِهَا الْإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ..»[٣] ففصل وأطال النفس في عشرات الصفحات لكل مقصد، وجعل لكل مقصد أركاناً ومباحث[٤]، ومن العلماء المتقدمين من حصره في مقصد واحد ومحوري تدور عليه كل الأغراض والأهداف، ومنهم من خلط بين المقاصد والموضوعات الرئيسة وجعلهما أمراً واحداً.

(١) ص ٣٩٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٣٩.

(٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)٥، ٣٦١

(٤) بدأ بالمقصد الأول في ج٥، وبدأ بالمقصد الثاني ج١١،ص ١٠٨ وواصل الشرح عن بقية المقاصد بالتوالي بعد ذلك.

وما يهمنا هنا هو وقوف الشيخ ابن سعدي على مقاصد القرآن الرئيسية وكيفية عرضها، فلم يجمع الشيخ المقاصد العامة للقرآن بشكل محصور، بل نثرها في طيات تفسيره من خلال الشرح والتوضيح، وجعل الشيخ في مقدمة تفسيره أنّ مراد الله ومقصده الأسنى في القرآن هو المقصد الهدائي، قال في المقدمة: «.. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم»[1] وهذه الهداية تحتاج للتدبر والفهم، فجعل الشيخ مقصد التدبر من مقاصد نزول القرآن وهو مقصد الوسيلة؛ للوصول للعمل بعد العلم والبصيرة، فقال- -رحمه الله-- : « وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه المقصود بإنزال القرآن»[2]. وقال -رحمه الله-: «القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود»[3]. وجعل تعظيم هذا القرآن في القلوب والأفعال مقصداً أساسياً لنزوله فقال -رحمه الله-: «ذلك أنّ الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها..»[4]

المطلب الثالث: المقاصد الخاصة الموضوعية والجزئية: أفاض الشيخ في ثنايا تفسيره الكلام عن المقاصد الجزئية للآيات القرآنية، كالقصص و العقائد و العقوبات وما إلى ذلك من موضوعات القرآن المستظلة جميعاً بمقصد واحد عظيم- عند الشيخ- وهو الهداية، وكل موضوعات القرآن وآياته تنزع لهذا المقصد

(١) ص ٣٠.

(٢) ص ١٨٩.

(٣) ص ٧١٢.

(٤) ص ٢١٠.

الأسنى والغاية الأعلى. فكيف نهج الشيخ لإبراز هذه المقاصد:

الأول: التوجيه المباشر لبيان المقصد والإشارة إليه سواء كان مقصداً جزئيًا أو موضوعيًا: فمن المقاصد الخاصة أو الموضوعية عند الشيخ: المقاصد الخاصة بالقصص القرآني، فبعد تفسيره لقصة يحيى ومريم في سورة آل عمران قال: «.. فأنت- يا أيها الرسول- لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص؛ أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر: الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار»[1].

وفي بيانه للمقصد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال-رحمه الله- بعد تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأعراف: ١٦٤] وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ: أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم. وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل اللّه أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي»[2]. وفي بيانه للمقصد الجزئي للآية يقول الشيخ بعد تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣] «.. فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة..»[3] وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ

(١) ص ٩٦٦.

(٢) ص ٣٠٦.

(٣) ص ٨١٦.

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨]. يقول الشيخ -رحمه الله-: «وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات؛ فإنّ هذا كله [ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً»[1].

ولولا ضيق المساحة لأفردت منهجاً للشيخ في بيان مقاصد الأحكام، ولعلّ دراسةً مستقلةً تخرج في ذلك، وخاصة آية الدَّيْن التي فسر مقاصدها الشيخ بإبداع وإتقان.

الثاني: يستدل بالمقاصد المركبة باستدراج القارئ من مقصد أولي لمقصد نهائي هو مقصد المقصد: ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦] يقول-رحمه الله-: «ثم امتنّ عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناكح ونحوها، قد يسر اللّه للعباد ضروريها ومكمل ذلك، وبين لهم أنّ هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله اللّه ليكون معونةً لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال:] وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ [من اللباس الحسي؛ فإنّ لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح»[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى: فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) قال

---

(١) ص ١٦٢.

(٢) ص ٢٨٥.

-رحمه الله-:» فلما دعا العباد النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا..»[1].

الثالث: تصحيح المقصد وتوجيهه الوجهة الصحيحة لا كما يعتقد بعض الناس: ففي تفسيره لآية البر العظيمة في سورة البقرة قال -رحمه الله- « يقول تعالى﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف..»[2] وعن إنزال الآيات والبراهين قال -رحمه الله-:﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عما هم عليه»[3].

الرابع: تحري المقصد الصحيح وتحقيقه فعلاً: ومنه الحث على حسن الخطاب في الدعوة إلى الله ومعرفة المقصد الصحيح لتؤتي الدعوة أُكلها، لا لمجرد القيام بالدعوة فقط من غير رؤية ولا أفق، يقول -رحمه الله- في سياق تفسيره لقوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[النحل: ١٢٥] «فإن كان المدعوُّ يرى أنّ ما هو عليه حق، أو كان داعيةً إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً. ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي

---

(١) ص ٨١١.

(٢) ص ٨٣.

(٣) ص ٤٦١.

كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها»[1]. في نفس الباب ولكن في سورة أخرى وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح: ٥-٦] قال -رحمه الله-: «أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأنّ فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٩] كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود»[2] وقال في سورة المدثر ﴿قُمْ﴾ -أي بجد ونشاط- ﴿فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه"[3] وفي سورة البقرة وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩] «ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً؛ فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»[4].

(١) ص ٤٥٢.

(٢) ص ٨٨٨.

(٣) ص ٨٩٥.

(٤) ص ٨٨.

المبحث الثالث: توظيف المقاصد في تفسير ابن السعدي:

للمعرفة المقاصدية القرآنية أهمية كبيرة في فهم القرآن وحسن التعامل مع الواقع ومطابقته مع القرآن أحسن تطابق، وقد برع الإمام ابن عاشور في هذا الفن وأصّل له معتمداً على التراكم المعرفي ممن سبقه حتى نضج بين يديه -رحمه الله-[1]. وقد أجاد الشيخ ابن سعدي في هذا المجال، وأفاد من معين القرآن الخصب، وفطن على ضرورته في التدبر والاستنباط. وقد كان لفقه الشيخ وخبرته الطويلة عصمةٌ من الزلل في هذا المضمار الصعب؛ فهو يحتاج لقدرة غير عادية في التوظيف والاستدلال، قلما توجد إلا عند عالم راسخ مكين عليم؛ حتى لا ينزلق عن البرهان العلمي الصحيح، بل يحسن وضع الأمور في نصابها الصحيح من غير تكلف أو ضيق أفق.

وسأعرض في هذه الورقات نماذج لحسن توظيف الشيخ للمقاصد القرآنية في الفهم والاستدلال:

المطلب الأول: الاستدلال بالمقاصد للتربية والتوجيه: ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨] قال -رحمه الله-:

---

(١) انظر لتفصيل ذلك: كتاب د إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، رسالة دكتوراة طبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٥م، ط٢، وكان شرحاً لرؤية ابن عاشور في المقاصد بدراسة مقارنة. وكذلك كتاب التهامي الوزاني، في كتابه: توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، موتمر: فهم القرآن مناهج وآفاق، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٨م ١٤٢٩هـ.

« هذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله متاع قليل، ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلا ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيتَ ما تؤول إليه. وأما المتقون لربهم، المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزراً يسيراً، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً، وعطاءً جسيماً، وفوزاً دائماً»[1].

المطلب الثاني: الاستدلال بالمقاصد على مواجهة المخالفين: ففي تفسير قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤] يقول -رحمه الله-: «..لما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود

(١) ص ١٦٢.

منهـا وأنّ الله جعلهـا ابتلاءً وامتحانـاً لعباده، ليعلم من يقـدم طاعته ومرضاته على لذاته وشـهواته، فجعلوها وسـيلةً لهم وطريقـاً يتزودون منهـا لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهـم، وعلموا أنها كما قال الله فيها [ذلك متاع الحياة الدنيا] فجعلوها معبراً إلى الـدار الآخـرة، ومتجراً يرجون بهـا الفوائد الفاخـرة، فهؤلاء صارت لهـم زاداً إلى ربهم»[1].

وفي تفسـيره لقولـه تعالـى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] عزز هـذا التوجيه بقوله -رحمـه الله-: ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ منعوها حقهـا التي هي بصـدده، فإنها مخلوقة لعبـادة اللّه وحده، فهـؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشـهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها»[2].

المطلب الثالث: الترجيح بالمقاصد واستخراج الحكم والأحكام: نهج الشيخ في اسـتخراج الحكم والأحكام في تفسـيره إلى فن المقصد مـن الآية، ولجأ إليه في الترجيـح بين المختلف في التفسـير، ففـي قوله تعالـى﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[النسـاء: ٩٢] يقـول -رحمه الله- « ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَـةٍ مُّؤْمِنَـةٍ ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغيـر والكبيـر، والذكـر والأنثى، والصحيـح والمعيب، في قول بعـض العلماء. ولكـن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيـب في الكفارة؛ لأنّ المقصود بالعتق

(١) ص ١٢٣.

(٢) ص ٦٣١.

نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإنّ التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك فإنه واضح»[1].

ومن وجوه توظيف المقاصد عند الشيخ -رحمه الله- بيان الراجح من القول بعد بيان الاحتمالات في الآية، فينهج -رحمه الله- بمنهج الاحتمال في التفسير ثم يقوم بالترجيح بنظرة مقاصدية ولا أروع، يقول- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى في سورة الغاشية معدداً لمعاني الآية: « ويحتمل أن المراد بقول﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾[الغاشية: ٢ - ٣] في الدنيا؛ لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف وهو يوم القيامة، ولأنّ المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها؛ ولأنّ الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا... وأما طعامهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾[الغاشية: ٦ - ٧] وذلك أنّ المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية»[2].

---

(١) ص ١٩٢.

(٢) ص ٩٢١.

الخاتمة والنتائج والتوصيات

بعد هذا العرض لدراسة المقاصد عند الإمام ابن سعدي في تفسيره الموسوم ب « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» تبين للباحث وقوف الشيخ- -رحمه الله-- على مقاصد القرآن عامة وآياته بشكل مخصوص، واستطاع الشيخ إظهار واستنباط هذه المقاصد وتوظيفها في بيان الحكم والترجيح من خلالها.

ويوصي الباحث بالنقاط الآتية:

١- العناية بهذا الفن من قبل أهل التفسير خاصة وأهل الشريعة بشكل عام؛ لما له من أهمية في كشف وبيان مراد الله بحسب الجهد البشري.

٢- قيام مؤسسة علمية بفريق بحث بكتابة تفسير كامل للقرآن الكريم يقوم على تقصيد التفسير وبيان مقصد كل سورة وآية ومقطع، ليكون تفسيراً مقاصدياً بالدرجة الأولى.

٣- التحذير من الدعوى المقاصدية في فهم القرآن ممن لا يحسن ذلك، أو ممن كان هدفه التشغيب على الدين وأهله؛ وعلامة هؤلاء الأخذ بالمقاصد الجزئية، كلُّ مقصد يناقض بقية المقاصد ليجعل القرآن عنين؛ فبدعوى تحرير المرأة- وهو مقصد شرعي- تخرج المرأة من حيائها ودينها؛ فتحرير المرأة مقصد لا ينفك عن باقي المقاصد في شأنها، وهكذا في بقية مواضيع الدين.

٤- أوصي المفسرين والعلماء باستصحاب مقاصد الدين ومقاصد القرآن في تعاطيهم مع التفسير والفتوى والفكر والثقافة؛ فهو عاصمٌ عن الزلل، رادع عن الخطل، بل هو موجه للفهم ومسدد للرأي.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١) الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، د إدريس مقبول، ٢٠١١م، عالم الكتب الحديث.

٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين محمد الشيرازي البيضاوي،تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٣) بين مقاصد التفسير والنقد التفسيري، د. فريدة زمرد، مجلة الإحياء، . فبراير ٢٠١٩.

٤) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ.

٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ أبو القاسم، محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

٦) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

٧) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط١ - ١٤١٩ هـ.

٨) تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم،تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة:

الثالثة - ١٤١٩ هـ.

٩) توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، التهامي الوزاني، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،٢٠٠٨م.

١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

١١) جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر الطبري، مكتب التحقيق بدار هجر، ط١.

١٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.

١٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

١٥) سنن أبي داود، أبو داود، دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٦) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، عبد الرحمن العدوي،، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد٤٤.

١٧) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت،ط١.

١٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد ابن عطية الأندلسي المحاربي، عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ ه..

١٩) معالم التنزيل محيي السنة، أبو محمد بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع،ط٤ ١٤١٧هـ .

٢٠) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة.

٢١) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق : عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

٢٢) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٢ هـ.

٢٣) مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، د عبد الكريم الحامدي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨، ٢٩. دار ابن حزم، ٢٠٠٨م.

٢٤) الموافقات، إبراهيم بن موسى الشهير بالشاطبي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٥) نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، د إسماعيل الحسني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،٢٠٠٥م، ط٢.